المحاضرة الخامسة عشر

(الحروب الصليبية دوافعها – نتائجها)

مقدمة

الحروب الصليبية هي تلك السلسلة من الحروب التي شنتها اوربا المسيحية على البلاد العربية والتي بدأت في العقد الأخير من القرن الحادي عشر وامتدت لفترة قرنين تقريبا ١٠٩٦ – ١٢٩١ ، وهي نموذج للتوسع الاقطاعي الذي بدأ في القرن العاشر واستمر خلال القرون الثلاثة التالية ، بل وامتد الى العصر الحديث حيث كانت الحركة الاستعمارية الاوربية حلقته الختامية. فقد شهد القرن العاشر توسع المانيا الاقطاعية شرقا على حساب السلاف والمجريين والبلغار. كمـا شهد القرن الحادي عشر توسع النورمان في انكلترا وجنوب ايطاليا وصقليا (وهي تحت حكم العرب) ، وتوسع الدويلات المسيحية الاسبانية في شبه جزيرة ايبرية على حساب العرب والمسلمين.

ولكن التوسع الأوربي في الارض المقدسة يتميز في بعض اوجهه من ذلك الذي حدث في شرق اوربا وايطاليا وصقليا واسبانيا.

- ان احتلال القدس والاماكن الاخرى في سوريا وفلسطين يجسد في الظاهر بشكل تام فكرة الحرب الدينية . لقد كانت الكنيسة تشجع اتباعها دائما على محاربة المسلمين والهراطقة المسيحيين ، ولكنها في حالة الحروب الصليبية لم تكتف بالتشجيع بل تعدته الى تنظيم تلك الحرب والى الاشراف عليها وتوجيهيا.
- والدويلات المسيحية التي اقامها الصليبيون في سوريا وفلسطين لم تكن امتدادا للدول الاقطاعية الاوربية ، كما هي الحال في شرق اوربا وجنوبها ، بل ان تلك الدويلات كانت محطات ومراكز اوربية زرعت في محيط شرقي بعيدة جدا من مناطق انطلاقها ومفصولة عنها. ويصح وصفها بالمستعمرات ، فهي لا تختلف كثيرا عن المستعمرات الاستيطانية الاوربية في العصر الحديث ولا غرابة ان قال بعض المؤرخين انها اول عمل جدى الاستعمار الأوربي.

وفي الكلام عن الحروب الصليبية ، يجب الاخذ بنظر الاعتبار ، ان هذه الحروب لم تكن الا جزء من هجوم اوربي شامل على الوطن العربي والعالم الإسلامي وقد بدأ هذا الهجوم قبل الحروب الصليبية واستمر بعدها. لقد قام النورمان خلال النصف الاول من القرن الحادي عشر بالهجوم على معاقل العرب في جنوب ايطاليا. كما هاجموا صقليا بصورة مستمرة بين عامي ١٠٦٠ و ١٠٩٠ واحتلوها وبذل الجنوبيون والبنادقة جهوداً متواصلة لتصفية القوة البحرية الاسلامية في البحر الأبيض المتوسط.

اما في اسبانيا فقد شرعت القوى المسيحية في التوسع على حساب العرب في كل اتجاه . فبعد وفاة الحاجب المنصور عام ١٠٠٢ اخذت الدويلات المسيحية في شمال اسبانيا ليون وكاستيل (قشتالة) واراغون ونافار تدخل في دور توســـع فسقطت طليطلة بيد الفونسو السادس القشتالي عام ١٠٨٥ واستولت الأراغون على سرقسطة عام ١١١٨. واستمرت حركة التصفية للوجود العربي في اسبانيا خلال القرون الثلاثة التالية .

وشملت هذه الحرب الشاملة ضد العالم الاسلامي اسيا الصغرى أيضا. حقا لقد كانت الحرب سجالا بين المسلمين والبيزنطيين منذ ظهور الاسلام ، الا ان الجديد في الأمر هو مساهمة المسيحيين الغربيين في هذه الحرب. فقد عرض كثير من الفرسان الأوربيين خدماتهم على الامبراورية البيزنطية . وجاء متطوعون للخدمة الجيش البيزنطي من اقطار اوربية كثيرة ومتباعدة . فكان هناك متطوعون مـــن اسكندنافية وايطاليا وانكلترة وفرنسا. وهكذا نرى ان الحروب الصليبية لا يمكن ان تفهم الا في اطار هذا الهجوم الاوربي الشامل على الوطن العربي والعالم الاسلامي. و سوف نتناول الحروب الصليبية من حيث هي حركة اوربية وتولف فصلا من تاريخ اوربا في العصر الوسيط ، ولهذا سيكون كلامنا عن المقاومة العربية وردود الفعل الاسلامية وحركات التحرير العربية ، موجزا ، فمجال ذلك في دروس التاريخ العربي الاسلامي

دوافع الحروب الصليبية

الدوافع الدينية:

دوافع الحروب الصليبية كثيرة ومتنوعة منها ما هي دوافع روحيـة دينية ومنها ما هي مادية دنيوية . وبالنسبة للدوافع الدينية فأن الكنيسة الغربية شجعت اتباعها بصورة مستمرة على محاربة المسلمين ، وقد اعتبرت القتال ضدهم حربا مقدسة يثاب عليها المـرء ودفع البابوات اتباعهم لطرد المسلمين من ايطاليا واسبانيا وصقلية . بل ان غريغورى السابع طالب بطردهم من اسيا الصغرى . واثار البابوات حماس الاوربيين بما كالوه لهم من وعود واماني . فعندما سأل بعض الاساقفة البابا جون الثامن فيما اذا كان اولئك الذين سقطوا في ساحة المعركة مؤخرا دفاعا عن كنيسة الله المقدسة ومن اجل سعادة وخير الديانة المسيحية والدولة المسيحية ، والذين سيسقطون في ساحات المعارك في المستقبل لنفس الغرض ، سيحصلون على الغفران اقتبس البابا في اجابته عن هذا السؤال نصا من الكتاب المقدس يتعلق بغفران الذنوب – لاولئك الذين تمت توبتهم . واضاف مؤكدا ان اولئك الذين يموتون في سبيل الكنيسة ومن اجل تعاليمها ستغفر لهم الذنوب جميعا.

ووفرت المتاعب التي يتعرض لها الحجاج المسيحيون الى بيت المقدس خلال – النصف الثاني من القرن الحادي عشر مبررا قويا للبابوات للدعوة الى حرب . والحج تقليد مسيحي قديم. فقد اعتاد المسيحيون منذ عهود المسيحية الأولى شد الرحال الى القدس والى اماكن معينة ذات صلة خاصة بحياة السيد المسيح او الحواريين او القديسين. والحج مظهر من مظاهر التقوى والصلاح. ووسيلة لنيل التوبة والغفران من خطايا معينة وذنوب عامة. وكانت روما من اماكن الحج المهمة ، ولكن الاهم منها بيت المقدس. فهنا قبر السيد المسيح ، وهنا الصليب الذي سمر عليه ، حسب الرواية المسيحية ، وهنا المواقع ذات الصلة بحياته مثل الناصرة وبيت لحم .

وازداد عدد الحجاج المسيحيين الى الارض المقدسة زياد كبيرة خلال النصف الثاني من القرن الحادي عشر. ويرجع ذلك الى عوامل كثيرة منها الحماس الديني الذى ولدته حركة الاصلاح الديني في اوربا في هذا الوقت والذي اججه الصراع بين البابوية والامبراطورية. ومنها الهدوء والاستقرار النسبي الذي ساد اوربا ، بعد تلك الفوضى التي سادت اوربا خلال القرنين التاسع والعاشر. ثم سلامة الطرق المؤدية الى الشرق . فقد اعتنق المجريون المسيحية حديثا وبذلك فتح طرق اواسط اوربا ، كما تمكن الفاطميون من حماية الملاحة في البحر الابيض المتوسط من خطر القراصنة وشجعوا الحج الى بيت المقدس لما يدره عليهم من ارباح طائلة تماما كما تشجع الحكومات في هذه الايام السياحة الى بلادها . ولكن طريق الحج ما لبث ان تعرض للمخاطر والمصاعب منذ أواخر القرن الحادي عشر بعد ان سيطر السلاجقة الاتراك على الطرق المؤدية الى الارض المقدسة ففي معاملتهم للحجاج الغربيين خالف السلاجقة نهج العرب الذين جبلوا على التسامح والود تجاه جميع الديانات والفئات . لقد اتخذت البابوية من معاملة السلاجقة – السيئة للمسيحيين ذريعة للدعوة الى الحرب الصليبية ووسيلة لاثارة حماس الأوربيين.

ثم جاء التهديد المباشر للدولة البيزنطية ، بل ولشرق أوربا بعد ان الحق السلاجقة هزيمة ساحقة بجيوش تلك الدولة في عام ١٠٧١ في معركة مانزيكرت. فقد خسر البيزنطيون نتيجة للمعركة كل اسيا الصغرى تقريبا وامتدت املاك السلاجقة حتى بلغت بحر مرمره. وافزع تقدم السلاجقة البيزنطيين الاوربيين على حد سواء وتقدم الامبراطور ميخائيل السابع الى البابا غريغوري السابع طالبا المساعدة واظهر البابا استعداده لنجدة الامبراطور البيزنطي. وخطط لحملة عسكرية تقوم باسترداد اسيا الصغرى واعادتها الى البيزنطيين مقابل قبول هؤلاء بدمج الكنيسة الشرقية بكنيسة روما. واعد غريغوري السابع فعلا جيشا لهذا الغرض. ولكن صراعه مع الإمبراطور هنري الرابع حول مشكلة التقليد العلماني ، حال دون اتخاذه خطوة فعالة في هذا المضمار.

وواصل الامبراطور الكسيوس كومنين جهود سلفه، فتقدم في عام ١٠٩٥ بطلب للمساعدة الى البابا اريان الثاني. وكان هذا البابا فرنسي . وسبق له ان كـان راهبا في دير كلوني ، وساهم مساهمة فعالة في الحرب ضد المسلمين في اسبانيا وكان متحمسا لمواصلة الحرب ضد المسلمين في كل وقت وفي كل بقعة. وفي شهـر تشرين الثاني عام ١٠٩٥ حل البابا في كليرمونت في جنوب فرنسا. وفي اجتماع كبير ضم كبار رجال الدين والنبلاء ، القى خطابا هاما دعا فيه الى القيام بحرب صليبية . وطلب من الحاضرين بذل جهد فعال ومشترك لمواجهة خطر المسلمين ولحماية الاماكن المقدسة. لقد كان البابا حاذقا في اثاره حماس مستمعيه. وكان اغلب الحاضرين من الفرنسيين لذا فقد كلمهم بلغتهم. كانت دعوته ذات صبغة دينية بطبيعة الحال. فدعاهم الى نبذ الحروب الاقطاعية والتفرغ لما هو اهم واسمى. حثهم على نصره اخوانهم في الدين في الشرق فلتجر مراعاة هدنة الله في ارض الوطن ، وينبغي تجريد جيوش المسيحيين في حملة لقهر المسلمين ، ابتغاء الحصول على التوبة الكاملة التامة. ووعد البابا اريان الثاني جميع المساهمين في الحرب بالثواب والغفران. ولم يكتف البابا بكل هذا بل اثار اطماعهم بما قدمه لهم من صورة جذابة للارض التي سيقدمون عليها فقد وصفها ببلاد العسل واللبن. وتحمس الحاضرون لدعوة الحرب وهتفوا جميعا هكذا اراد الله واندفع الكثيرون معلنين استعدادهم للمساهمة في تحرير الارض المقدسة وحدد يوم ١٥ تموز عام ١٠٩٦ موعدا لرحيل المحاربين ، كما عينت القسطنطينية مكانا لالتقاء جميع الصليبيين ووضعت الشروط الكفيلة بحماية املاك الراحلين وعوائلهم طيل فترة غيابهم. ومنعت النساء من المساهمة في الحرب الا اذا كـــن في صحبة ازواجهن. اما القسس والرهبان فقد تطلبت مشاركتهم موافقة رؤسائهم.

الدوافع الأخرى

ان ما ذكر حتى الان يوضح دور العامل الديني في قيام الحروب الصليبية وفي الوقت الذى لا يمكن نكران دور العاطفة الدينية خاصة ونحن نبحث في تاريخ العصور الوسطى ، عصور العقيدة والايمان وعصور القسس والاساقفة والرهبان. الا ان هذا العامل وحده لا يكفي لتفسير هذه الحروب المتطاولة. والحقيقة هناك عوامل مهمة اخرى الى جانب ذلك العامل الديني . فالعاطفة الدينية كثيرا ما استغلت لاثارة حماس الناس العاديين. وكثيرا ما اتخذت المظاهر الدينية للتستر على اطماع لا تمت الى الدين بصلة. ومع ان الصبغة الدينية كانت بارزة في الحملة الصليبية الأولى ، الا ان تلك الصبغة صارت اقل وضوحا في الحملات الصليبية التالية ففي الحملة الصليبية الرابعة على سبيل المثال تناس الصليبيون الارض المقدسة التي جاءوا في الاصل لتخليصها من ايدي

المسلمين ، وتوجهوا الى القسطنطينية المسيحية ليحتلوها ولينتزعوها من يد اهلها البيزنطيين الذين قامت الحروب الصليبية في الاساس لنجدتهم ولدفع خطر المسلمين عنهم.

وحتى بالنسبة للحملة الصليبية الأولى ذات الصبغة الدينية الأكثر وضوحا ، فأن تلك الحملة تمخضت عن تحقيق مآرب واطماع فئتين من فئات المجتمع هما الاقطاعيون الفرنسيون والتجار الايطاليون ولم يكن الدين بالنسبة لكلتا الفئتين الا وسيلة لتحقيق اغراض تجارية واقتصادية وسياسية. لقد حصل الاقطاعيون الفرنسيون على اراضي جديدة اقاموا لهم فيها ممالك ودويلات في الشرق. وحقق التجار الايطاليون مكاسب وارباح تجارية جسيمة من جراء مساهمتهم في الحرب.

وهكذا كانت الرغبة في الحصول على اقطاعات جديدة لدى النبلاء والامراء الأوربيين ، والرغبة في الهيمنة على تجارة الشرق وموانيه لدى التجار الايطاليين من الدوافع الرئيسية لقيام الحروب الصليبية ولاستمرارها تلك المدة الطويلة.

وبالاضافة الى ما ذكر فقد كانت هناك اسباب ودوافع اخرى للحروب الصليبية منها الضائقة الاقتصادية التي بها الاوربيون ، اذ ان لاقتصاد الريفي البسيط الذى كان سائدا في اوربا ، لم يعد باستطاعته مواجهة ازدياد السكان هذه الظاهرة التي اصبحت واضحة المعالم خلال القرن الحادي عشر وقيل ان البابا اريان الثاني خاطب المجتمعين في كلير مونت قائلا من الصعب عليكم ان تعيلوا السكان في هذه البلاد وهذا ما يدفعكم لشن هذه الحروب الكثيرة فيما بينكم.

ثم ان الحروب الصليبية جاءت لتلبية حاجة ملحة هي اشباع روح المغامرة عند بعض الاوربيين ونخص بالذكر منهم النورمان والنبلاء الفرنسيين فبعد ان اتم اولئك النورمان – فتوحاتهم في اوربا ، وبعد ان منع ملوك فرنسا الاقوياء النبلاء الفرنسيين من شن الحروب على بعضهم البعض. راى اولئك وهؤلاء في الحروب الصليبية متنفسا واشباعا لروح المغامرة والشهرة والمكاسب الاقتصادية والسياسية. والخلاصة ان الحروب – الصليبية كانت حروبا استعمارية قامت بها اوربا ضد الوطن العربي الاسلامي واضفت عليها طابعا دينيا في الظاهر لخداع جماهير الشعب واستثارة حماستهم.

<u>اثر الحروب الصليبية في اوربا</u>

للحروب الصليبية نتائج هامة على اوربا من النواحي السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية. فمن الناحية الاقتصادية عملت الحروب الصليبية على تنشيط التجارة الاوربية مع الشرف واستفادت المدن التجارية الايطالية اكثر من سواها من تلك الحروب واستمرت تجارة تلك المدن مع الشرق حتى بعد زوال الدويلات الصليبية. فقد قام

الايطاليون بنقل البضائع الشرقية الى اوربا مثل التوابل والسكر والانسجة الشرقية الثمينة والعطور وبمرور الزمن اعتاد الاوربيون هذه الحاجيات وصارت سلعا اساسية بعد ان كانت ثانوية. فحرصوا على الحصول عليها. وبدأوا في البحث عن الطرق التي تؤديهم الى الشرق للوصول اليها. وهذه هي بداية حركة الاستكشافات الجغرافية التي احدثت من غير شك ثورة في التاريخ البشرى كله. ويرى البعض ان اكتشاف اواسط اسيا في القرن الثالث عشر على يد الأوربيين يضاهي في اهميته اكتشاف امريكا في اواخر القرن الخامس عشر.

لقد انهت الحروب الصليبية عزلة الاوربيون ووسع الاختلاط بالشعوب العربية – والاسلامية افق معرفتهم. وبدأ اهتمام الاوربيين بالشعوب العربية والشرقية

وبثقافاتها منذ الحروب الصليبية. وقد بذلت المحاولات الاولى لدراسة اللغات الشرقية وفي مقدمتها اللغة العربية وتجمعت نتيجة للحروب الصليبية معلومات كثيرة عن الشرق فوضعت كثير من كتب الارشاد للأرض المقدسة خلال الحروب الصليبية كما الفت الكتب الخاصة بتاريخ تلك الحروب وقد يكون اثر الحروب الصليبية محدودا من النواحي الثقافية وذلك لان القائمين بها والوافدين الى الشرق بموجبها لم يكونوا على جانب من الثقافة والعلم وكان اهتمامهم بالمعرفة ضيقا ومحدودا.

ومن الناحية الاجتماعية فان ازدهار التجارة ادى الى تطور الفئات البرجوازية وازدياد نفوذها على حساب الطبقات الارستقراطية في اغلب الاحيان . ولهذه اهمية خاصة ودور كبير في انحلال نظام الاقطاع وساندت الفئات البرجوازية الملكيات المطلقة في صراعها ضد الاقطاع والارستقراطية.

وازدادت اهمية الكنيسة وازداد نفوذ البابوات في بداية الحروب الصليبية وعلى اثر النجاح الذى حققته تلك الحروب في مراحلها الاولى. ولكن تعتمها وفشلها وتحول الصليبيين عن اهداف الحرب الاساسية كما هي الحال في الحملة الرابعة واستغلال البابوات للحرب المقدسة لأغراضهم الخاصة حط من منزلة الكنيسة وقلل من هيبتها.
ولعل النواحي العسكرية هي ابرز النواحي التي ترك المسلمون اثرهم فيها. فقد تعلم الأوربيون من المسلمين استخدام الاسلحة الخفيفة والاعتماد على المشاة، واقتبسوا منهم طرقا جديدة لبناء القلاع والتحصينات.
ان اتصال اوربا بالبلاد العربية والاسلامية طوال الحروب الصليبية كان من اهم عوامل نهضتها وتقدمها. فقد بهرت الحضارة العربية الاسلامية المتقدمة عقولهم – واستحوذت على انفسهم ، وفتحت آفاق تفكيرهم.
وقد تعلم الاوربيون من العرب . والمسلمين صناعات كثيرة ، وطرقا جديدة في الزراعة والري والملاحة والبحرية ، وتنظيم المدن وادارتها ونظافة شوارعها وحماماتها ومرافقها العامة ، ان اتصال الأوربيين – المباشر بالحضارة العربية الاسلامية كان من اهم عوامل انطلاق الحضارة الاوربية الحديثة في مختلف مجالاتها .